مقــالة في قــوى النفس

لأبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد

تقديم : عبد المجيد الغنوشي

وردت هذه المقالة «في قوى النفس» لأبي الوليد محمّد بن أحمد بن محمّد ابن رشد ضمن مجموعة من رسائله المخطوطة الموجودة في مكتبة «الاسكوريال» تحت المرجع الآتي : C. O. D. 632

وقد عالج فيلسوف قرطبة في هذه المجموعة مسائل منطقية ذات أهمية إذ أنها تعدّ مقدمة للفلسفة حسب ما جرت به العادة الّتي سنها المعلم الأول وسار عليها جل الفلاسفة المشائين في تصنيفهم مؤلفاتهم ، إذ كانوا يرون من الضروري أن يبتدىء دارس الفلسفة وخائض غمارها بحذق العلوم المنطقية وما تتضمنه من نظرية الحدود وشروطها ومن أنواع المقاييس وأحكامها ومن معرفة البراهين وتراكيبها لأن كل ذلك ينزل منزلة الآلة العقلية من صناعة الفلسفة .

ولقد تعرض أبو الوليد بن رشد في « مقدمته للفلسفة » الّتي نحن بصدد نشر مقالتها و تحقيقها وشرحها إلى إيضاحات منطقية حول شتّى المسائل المتعلقة بالحدود والحامل والمحمول وجهات القضايا وعكوستها والمقول على الكل مبينا رأيه فيها مشيرا إلى ما ر آه فاسدا في أقوال كل من الفارابي وابن سينا والاسكندر الافروديسي وجالينوس في هذا المضمار . وبيّن أن

ابن رشد لم يصنف هذه المجموعة من الرسائل في نفس الظرف ولا في نفس البلد إذ أن بعضها وُضع في اشبيلية والآخر في قرطبة خلال سنوات مختلفة كما يشهد بذلك قوله عند فراغه من واحدة واحدة غير أنك تجد من بينها ما ليست تذكر فيها تلكم الاشارات ولم يدر فيها الحديث حول المسائل المنطقية كالمقالة التي نحن بصدد تصديرها أو كتلكم التي تعرض فيها أبو الوليد إلى الفحص عن عدد اصناف المزاجات الموجودة في نوع نوع من انواع الاجسام . وبالجملة فانا نرى أن هاتين المسألتين وإن لم يكن لهما مساس بالمنطق فهما تعدان اساسيتين ككل مسائل الطبيعيات التي تتقدم معرفتها معرفة الالاهيات ومعضلات فلسفة ما وراء الطبيعة بصفة عامة .

إنّ المحور الاساسي الذي تدور حوله مسألية هذه الرسالة وتتسع جدليا هو البحث عن جوهر القوى الكامنة في البذور والزروع وكيفية تكوينها وتخليقها للجنين ثم التعرف على طبيعتها من حيث كونها وفسادها أو عدمهما . لقد اقر أرسطو بأن الصورة والكيفية اللتين للجسم مفادتان من جسم آخر اتصل بالجسم الأول وصيره على نفس شاكلته فإن كان هذا يؤخذ مأخذ الإطلاق في كثير من المحسوسات فهل يجوز حمله على الكيفية التي بها يتكون الجنين وعلى المكوّن له . ولو سلمنا بذلك فلا بد من السؤال عن تلك القوة المكوّنة ومن التتوق إلى معرفة ماهيتها أعني لو فرضنا أن الجنين يتكون من إتصال مادته بالمني اثر الجماع لتحتم علينا تفهم كنه تلك القوة القائمة في المنـي والمُحَايِثـَة للجنين (Immanente) . يقـول ابنّ رشد أن هـذه المسألية قد نظر فيها أرسطو غير أنها وردت مقتضبة في كلامه . ولذا تعهد أبو الوليد بسطها واتمامها راجعا في ذلك كله إلى مصادر المعلم الأول نفسها مستخرجا منها ما هو بالقوة في هذا المضمار .

لا يخلو قول أرسطو « ان المكون للجنين جسم » من أحد فرضين : اما أن يكون ذلك المكون هو الاب واما أن يكون غير الأب . فإن فرض الأب

لزم أن يكون مُمَاسا للجنين وملازما له في تكونه ملازمة الصانع اثناء الصناعة فأنّى يتأتى ذلك ولم يمس الأب مادة الجنين إلا حين الجماع ؟

فذلك اذن فرض محال . فهل يمكن اللّجوء إلى جسم من خارج يتولى خلق الجنين وتكوينه ؟ لكن قولنا بذلك يكون قدحا في العقل وانحرافا عما يجس اذ لسنا نرى ذلك موجودا لا في جنس النبات المتكون ولا في جنس الحيوان المتناسل . وبعد دحض هذين الافتراضين يتابع ابن رشد قوله بكامل العقلانية فيفحص افتراضات أخرى ويظهر تهافتها أمام المقتضيات المنطقية إلى أن يصل تدريجيا وبصفة مدققة متماسكة إلى الاعتراف بأن « في المني قوة مولدة لما هو مثل الذي منه المني أي موافقة لها في النوع أو الجنس . ولما كانت هذه القوة انما هي بالقوة صورة المتكون لا بالفعل وكان كل ما يكون فيه ما بالقوة عما هو بالفعل مثله وجب أن يكون الذي ينزل من الجنين منزلة المكون الأول هو الأب لأنه بالفعل مثل المتكوّن وأن تَكَوَّنَ هذه القوة منزلة الآلة للصانع » وهكذا فإنا إذا صادقنا على ذلك كله أعني إذا ثبت لنا أن تَكَوَّنَ الجنين مرجعه إلى قوة ابطانية متفشية في المني وفي مادة الجنين وإن تلك القوة كآلة للصناع أي هي علة مادية وفاعلة في آن واحد وجب أن نُقرر أنها أخذت تتحرك من ذاتها بعد أن أفادها المحرك الأول حركتها وانفصل عنها فبذلك اشبهت الأشياء الصناعية العجيبة المحركة من ذاتها وان فاضلتها في حرارة حيوانية خليقة بأن تكيف الجنين تكيفها هي بها . ثم ان هذه القوة فضلا عن عليتها المادية والفاعلة فَتَبَيَّنُ من أمرها أنها تقوم مقام العلة الصورية ما دامت هي التي تعطي الجنين خلقته وشكله . فلا يسعنا إذن إلاّ أن نلمس شبها بينها وبين كل من القوى الطبيعية والصناعية والنفسية . الا أن ذلك الشبه يظل شبها فحسب إذ أننا لو تجاوزناه وقلنا مثلا إن تلك القوة المكونة للجنين نفس أو قوة مماثلة للقوة الطبيعية لفهنا بخُلْف لأن النفس كما حدّها أرسطو « كمال لجسم آلي » وليست قوة إبطانية منبثة في المني

أو في الطبيعة . بقي لنا بعد أن أثبتنا وجود تلك القوة أن نتعرف على ماهيتها . فإذا كنا لا نستطيع البتة أن نسميها نفسا لِمكَان ذلك مُنافِيًا لمفهوم النفس فربّما أسميناها القوة المصوِّرة على غرار الاطّباء لأنها تصور وتخلق أعضاء الجنين فيتراءى لنا بذلك شبه بينها وبين القوة الغاذية غير أنها ليست ولن تكون نفسا غاذية «لان النفس الغاذية هي آلة وهذه القوة ليست لها آلة إلا الحرارة» وإن كانت تلك القوة تخلق دون شك جميع أعضاء الجنين وتعطيها النفس الغاذية . وعندما يصل ابن رشد إلى هذه الاستنتجات المنطيقية المنسجمة يصعق بالسؤال عن مأتى تلك العلة المكوِّنة : أهي علة متعالية (Transcendante) بالنسبة إلى قوى النفس ومحركة لها أم محايثة لها (Immanente) . فإذا كانت على الفرض الأول فالقوة التي بحثنا عنها وأثبتنا وجودها ليست ضرورية بل أن وجودها عبث ، وإن كانت على الفرض الثاني — وضروري أن تكون عليه — لزم أن تكون تلك العلة أو بالاحرى تلك القوة هي المكوِّنة ولابد . «فلما فحص أرسطو عن هذا ظهر له أن جميع قوى النفس متكونة لأنها آلية لا يتم فعلها إلا بالجسم» . فتبيَّن إذن من أمر هذه القوة المكونة للجنين انها محايثة له . وتجدر الإشارة إلى ما في هذا القول من خطورة عقائدية ما كان للتفكير الديني إذ ذاك أن يغض عنها الطرف لو تفطن إليها ، ولو لم تكن هذه مصوغة في أسلوب يذهب على الكثيرين فهمه ومقنّعة بقناع كثيف فرضته الظروف على ابن رشد أشد فلاسفة الإسلام تبصرا وعقلانية وأثقبهم نظرا .

عبد المجيد الغنّوشي

[illegible]

صفحة من مقالة ابن رشد « في قوى النفس »

[illegible]

صفحة من مقالة ابن رشد « في قوى النفس »

نص المقالة

بسم الله الرحمان الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وسلم تسليما

ــ عونك اللهمّ يا رب

قال أبو الوليد بن رشد رحمه الله تعالى ورضي عنه بلطفه ورحمته :

إن الغرض في هذا القول أن نفحص عن القوى الموجودة في البزور والزروع التي تكوّن مثل ذي البزر ما جوهرها في البزور أوّلا ، ثم ثانيا في الجنين المحمول قبل أن يتم كونه . وإن كانت موجودة ، فأي وجود وجودها ، وهل هي كائنة فاسدة ، أم ليست بكائنة ولا فاسدة . وسائر ذلك ممّا يتشوّق إليه أن يعلم من أمرها . فنقول :

إن أرسطو لمّا وجد هاهُنا بعض الأجسام إذا ماست جسما آخر أفادته الصورة التي فيه والكيفية التي هو بها ما هو وكان ظاهرا من أمر الجنين أنّه جسم متكوّن بصورة مخصوصة أعني من نوع صورة الأب الذي منه البزر في الحيوان والنبات المتناسل ، ابتدأ أوّلا ففحص عن هذا المكوّن للجنين هل يمكن أن يكون جسما ، وإن كان جسما فهل هو من خارج كأنك قلت الأب ، أم هو أيضا جسم من الأجسام ينفصل من الأب ويتصل بمادة الجنين أوّلا فيكوّن الجنين في الرحم أم هي قوّة تنفصل من الأب في المني وتصير في الرحم فتتصل بمادة فتكوّنه . وإن كان ذلك كذلك فما جوهر هذه القوة واي وجود وجودها في المنيّ اوّلا وفي الجنين ثانيا ، وهل هذه القوّة هي المحرّك الأوّل في التكوين ، أم المحرّك الأوّل لها قوّة غير هذه القوّة . وإن كان ذلك كذلك فما جوهر هذه القوّة وهل هي في جسم أو ليست في جسم . وإن كانت في جسم فأي وجود وجودها في ذلك الجسم . فهذه هي حال المطالب التي ينبغي أن تطلب في هذا المعنى وهي في كلام أرسطو موجودة

إلاّ أن منها ما هي موجودة بالفعل في كلامه ، ومنها ما هي موجودة بالقوّة في أصوله التي أصّل . فلنبتدىء نحن بعون الله منها بما هو موجود بالفعل في كلامه ، ثم بما هو موجود بالقوّة في أصوله . فنقول :

إنّ أول ما بدأ به أرسطو هو الفحص عن المطلب الأوّل وهو : هل يمكن أن يكون المكوّن للجنين والمخلق له جسما من خارج كأنك قلت الاب على أنه مكتف بنفسه في هذا الفعل وإن كان أخذه أخذا مطلقا على جهة ما تؤخذ الأقاويل الجدلية المتعارضة حتّى إذا قيّدت بالقيود الصحيحة انحلّ التعارض وظهرت طبيعة البرهان فنقول :

ان أرسطو لمّا وضع أولا المكوّن هو جسم من خارج ، لم يخل هذا الجسم أن يكون الأب أو جسما آخر من خارج هو غير الأب . فإن وضعناه الأب، فقد لزم أن يكون مماسا حتّى يتم كونه ، لأن هذه هي حال الأجسام التي يكوّن بعضها بعضا من خارج والا يفارق ويبلى والجنين بعد تكوّن وإنّما ماس الأب مادة الجنين في وقت ما هو وهو في حين الجماع .

وإن فرضنا انّ الذي ولي التكوين بعد للجنين هو جسم آخر من خارج ، كان ذلك بخلاف ما يحس . وذلك أنّا لسنا نرى ذلك موجودا لا في جنس النبات المتكون ولا في جنس الحيوان المتناسل . *ولا نقدر أن نقول أيضا إنّ* في الرحم جسما هو الذي يولّد الجنين لأنّه يلزم أن يكون متنفسا وحيوانا ولان يكون له مولّد . ولا نرى أيضا شيئا من هذه يتولد من هذه من غير بزر ، فوجب أن يكون الشيء المولّد في البزر متولدا عن ذي البزر بتوسط البزر خارجا . ولسنا نقدر أن نقول في الحيوان انه يخرج من كل عضو من اعضاء المولّد عضو مثله لأنّ ذلك قد تبيّن بطلانه . وايضا فأنا نرى اعضاء الجنين تتكون بعضها بعد بعض وليس تتكوّن معا . وأيضا لو كان ذلك لكان تولد الجنين كمونا لا كونا . وهذا كلّه قد تبيّن امتناعه . ولا يمكن أيضا أن يعيش كلّ عضو منفصلا من صاحبه ثمّ يتّصل به من ذاته فيكون واحدا .

وهذا كلّه مستحيل . ولا نقدر أيضا أن نقول إنّ عضوا واحدا في المني هو الذي كوّن سائر الأعضاء كأنك قلت القلب لأنه لو كان ذلك كذلك لكان في القلب صورة جميع الأعضاء بالفعل كالحال في صورة المصنوع عند الصانع ولأن الذي بالقوّة إنّما هو أبدا عن الذي بالفعل المحض في المهنة والطبيعة . فلم يبق إلاّ أن يكون في المني قوّة مولدة لما هو مثل الذي منه المني أي موافقة لها في النوع أو الجنس . ولمّا كانت هذه القوّة إنّما هي بالقوّة صورة المتكوّن لا بالفعل ، وكان كلّ ما يكون بالطبيعة أو بالصناعة إنّما يكون فيه ما بالقوّة عمّا هو بالفعل مثله ، وجب أن يكون الذي يتنزّل من الجنين منزلة المكوّن الأوّل هو الأب لأنّه بالفعل مثل المتكوّن وأن تكون هذه القوّة منزلة الآلة للصّانع . لكن لمّا كانت الالات لا تتحرك إلاّ بمباشرة الصّانع لها ، وهذه القوّة يظهر من أمرها انّها محركة من ذاتها وقد فقدت المحرّك الأول أشبهت عند أرسطو من الأمور الصناعية الأشياء العجيبة التي يظهر انّها تتحرك من ذاتها وإنّما استفادت هذه الحركة من الصانع الذي صنعها أعني المتحرك من ذاته . ولمّا كانت هذه القوّة انّما تفعل بحرارة وكانت الحرارة بما هي حرارة لا تفيد المفعول إلاّ كيفية مثلها ، وكانت هذه القوّة يظهر من أمرها انّها تفعل الشكل والخلقة ، وكان الذي يفيد الشكل والخلقة في الأمور الصناعية هو صورة الصناعة ، وجب أن تكون هذه القوّة في الأمور الطبيعية نظيرة لقوّة الصناعة في الأشياء المصنوعة ونظيرة لقوّة النفس في الأشياء المتنفسة إلاّ أنها ليست نفسا لأن النفس إنما هي كمال لجسم آلي . فلمّا انتهى أرسطو من الفحص عن هذه القوّة إلى هذا ، أخذ يفحص عن طبيعة هذه القوّة ما هي لأنّه ليس يمكن أن تكون نفسا ولا قوّة مثل القوى الطبيعية التي في الأسطقسات . ولمّا كان الفحص عن طبائع القوى التطرق إليه إنّما هو من أفعالها وكان بيّنا من أمر هذه القوّة انّ أوّل شيء تفعله هو تخليق الأعضاء وتصويرها ولذلك سمّتها الأطبّاء القوّة المصورة أشبهت هذه الصورة الغاذية وذلك لأن القوة الغاذية تصيّر ما هو بالقوّة

جُزءُ من المغتذي جزءا متنفسا منه بالفعل وهذه القوّة تصيّر ما هو بالقوّة جميع أجزاء المغتذي متنفسا بالفعل أي مغتذيا بالفعل ، فإنّه ليس يصير عضوا من أعضاء المغتذي بالفعل إلاّ وفيه القوّة الغاذية بالفعل ، والفاعل كما قيل في غير هذا الموضوع هو المعطي للغاية من المفعول الّتي هي الصورة .

فدلّ هذا كلّه على أنّ هذه القوّة هي الّتي تصوّر الأعضاء وتعطيها النفس الغاذية وانها ليست نفسا غاذية لأن النفس الغاذية هي آلية ، وهذه القوة ليست لها آلة إلاّ الحرارة فقط . ولما كان الفحص عن أفعال هذه القـوّة يحتاج أن يتقدّمه أوّلا فيفحص عن قوى النفس فإن كان فيها ما يتكوّن فتكون هذه القوّة هي المكوّنة ولابدّ ، وإن كان فيها شيء غير متكوّن كان ولابدّ واردا من خارج ولم يَحْتَج إلى هذه القوّة ولم تكن هذه القوّة مكوّنة . فلمّا فحص أرسطو عن هذا ظهر له أن جميع قوى النفس متكوّنة لأنّها آلية لا يتم فعلها إلاّ بالجسم مثل القوّة المحركة في المكان والقوّة الحسّاسة المدركة . وأمّا العقل فلمّا لم يكن يظهر انّ له آلة جسمانية يفعل بها كالحال في سائر قوى النفس ، وقع الشكّ : هل هو داخل من خارج أم يتكوّن بوجه ما وهو داخل من خارج بوجه ما . فأرجأ الفحص عن ذلك إلى الموضع الذي يليـق به وقال انّ الظنّ الغالب في هذا هو أنّه يرد من خارج وقضى على أن كلّ قوّة نفسانية فهـي محتاجة إلى جسد تقوم به . ولمّا نظر في طبيعة هذا الجسد قال إنّه جسد أكرم من كل واحد من الأسطقسات الأربعة وقال فيه إنّه جسد الاهي وإنّه يختلف بالكرم والشرف .

(انتهى ما وجد من هذا الكلام والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد و اله وسلّم تسليما) .